الفصل السادس

كيف ننتصر على الموت؟

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل السادس

كيف ننتصر على الموت؟

تمهيد:

يجب- بادئ ذي بدء- أن نوضح، ماذا نعنى بالانتصار على الموت؟ هل يكفي لذلك أن نعيد طرح السؤال بصيغة أخرى: هل من الممكن الانتصارعلى الموت؟

وبالطبع فالإجابة بدهية؛ أعنى أن الموت ماض في طريقة، يحصد الرؤوس والنفوس، ولا أحد يستطيع أن يرده أو يصده هنيهة واحدة، بله أن ينتصر عليه فالمواجهة بين الموت والإنسان، معلومة النتيجة سلفا. وهي الهزيمة الساحقة للإنسان.

لقد كان حلم البشرية منذ فجر التاريخ البحث عن حيلة سحرية تنزل الهزيمة بالموت، وتنقذ ضحاياه من بين براثنه، فلما عيت بالأمر أشركت معها الآلهة وصنعت الأساطير والملاحم لعل قدرات الآلهة، تعوض النقص عند بنى البشر، فتهتك سر الموت، وتحصل لهم على إكسير الخلود، وفي إحدى الأساطير، أن الموت أخذ يفتك يوماً بالبشر فتكاً ذريعاً، فتألم أحد الآلهة لذلك، ونزل من عليائه ليعرف السر الرهيب، فوجد أن المياه مسمومة، واستطاع ان يستخلص منها السم، ثم وضعه في كأس،وتجرعه راضيا فداء للبشر مات هو ليبقوا هم بعده، ولكن الواقع أنه مات عبثا،وظلوا هم يموتون زرافات ووحدانا.

وفي أسطورة «جلجامش» محاولة أخرى ليست أسعد حظا من هذه تقول الأسطورة: إن ملكا نصف إله اسمه جلجامش، تألف إنسانا وحشيا اسمه انكيدو (بعض أعضائه أعضاء حيوان أعجم)، فلما مات «أنكيدو» حزن عليه جلجامش حزناً شديداً، وأخذ يبحث في السماء عن نبات سحري يدفع به الموت عن البشر ويمنحهم الخلود.

فلما أصبح قاب قوسين من ذلك النبات، دفع عنه، فسقط عائدا إلى الأرض خائب

obeikandi.com

الرجاء كسير الخاط[١].

الانتصار على الموت إذن، خرافة ما بعدها خرافة ولا صلة لها بالواقع ولا استقامة لها في حس أو عقل. إنما هي تهويمات للعقل البشري القاصر تفتعل معارك وهمية هي إلى تسلية النفس المحزونة وجلب العزاء إليها أدنى منها إلى أي شيء آخر، بله الانتصار على عدو لا قبل لأحد به.

لا مفر إذن من أن نعنى بالانتصار على الموت، هو كيف نتقبل الموت بقبول حسن؟ بنفس صافية راضية مطمئنة بل وأحيانا نسعى إليه حين يكون ذلك هو معيار البطولة أو الرجولة، والشهادة التي لا بد منها في سبيل الحق بمثل هذا المنطق نكون قد انتصرنا على هذا الفاتك الذي لا يرحم أرضنا، إذن فسبيل الانتصار على الموت يتجلى في مجالات شتى نلخصها في:

أولاً: تغيير أفكارنا تجاه الحياة.

ثانياً: تغيير أفكارنا تجاه الموت.

ثالثا: وسائل مواجهة الموت.

أولا: تغيير أفكارنا تجاه الحياة:

إذا تغيرت أفكارنا تجاه الحياة تغيرت تلقائيا تجاه الموت وأول نقطه في هذا الموضوع، هو تكوين تصور حقيقي لطبيعة الحياة في هذه الدنيا.

١- هذه الحياة في التصور الإسلامي:

خلع القرآن الكريم على هذا الحياة صفات شتى أهمها – من حيث الزمان والمكان –

---

(١) وتقول الملحمة في رواية أخرى، أن جلجامش حصل على النبات، وكان فرحاً به ولكنه نزل عند بئر ليغتسل فشمت الأفعى شذا النبات السحري، فتسللت إليه واختطفته. وهكذا فوتت على البشرية جمعاء فرصة أخيرة للحصول على الخلود، وهذا نص من الملحمة:

إلى أين تسعى يا جلجامش، إن الحياة التى تبغي لن تجد، حينما خلقت الآلهة العظام البشر، قدرت الموت على البشرية، واستأثرت هي بالحياة(فاضل على: ملحمة جلجامش ص٤٦ من مجلة عالم الفكر م/ ١٦ يونيو ١٩٨٥ الكويت).

إنها فترة عابرة في عمر الوجود، ورحلة قصيرة إلى دار القرار وقنطرة للعبور إلى المنطلق الثابت اللامحدود.

ثم هي فوق ذلك لهو ولعب وزينة وتفاخر؛ أعراض سيالة مثل السحب التي تبدو ثم تتبدد، والأمانة التي ترد إلى صاحبها، أو كما شبهها القرآن الكريم مثلها مثل الزرع الذي ينمو ويترعرع، ويزهو، ثم يذبل، ويصفر، ويصبح كومة من الهشيم تذروها الرياح.

وإليك مثالاً أو مثالين من الصور الدقيقة التي يقدمها القرآن الكريم للحياة الدنيا:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[١]﴾.

﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾[٢]

أي إذا كان هذا هو شأن الحياة الدنيا، فإن وراءها حياة أخرى مختلفة جداً.

فالحياة- مأخوذة بهذا العنوان العام- هى في التصور الإسلامي ليست هذه الفترة القصيرة التي تمثل عمر الفرد، وليست هي هذه الفترة المحدودة التي تمثل عمر الأمة من الناس، كما أنها ليست هي هذه الفترة المشهودة التي تمثل عمر البشرية في هذه الحياة الدنيا.

إن الحياة في التصور الإسلامي،تمتد طولا في الزمان،وتمتد عرضا في الآفاق، وتمتد عمقا في العوالم وتمتد تنوعا في الحقيقة عن تلك الفترة التي يراها ويظنها ويتذوقها من يغفلون الحياة الآخرة من حسابهم ولا يؤمنون بها.

إن الحياة في التصور الإسلامي، تمتد في الزمان، فتشمل هذه الفترة المشهودة فترة الحياة الدنيا – وفترة الحياة الأخرى التي لا يعلم مداها إلا الله والتي تعد فترة الحياة الدنيا بالقياس إليها ساعة من نهار!!

وتمتد في المكان، فتضيف إلى هذه الأرض التي يعيش عليها البشر، داراً أخرى، جنة عرضها كعرض السماوات والأرض ودارا تسع الكثرة من جميع الأجيال التي عمرت وجه الأرض ملايين الملايين من السنين.

---

(١) سورة الحجرات الآية ٣.

(٢) سورة النساء الآية ٧٧.

تمتد في العوالم، فتشمل هذا الوجود المشهود إلى وجود مغيب لا يعلم حقيقته كلها إلا الله، ولا نعلم نحن عنه إلا ما أخبرنا به الله. وجود يبدأ من لحظة الموت، وينتهي في الدار الآخرة، وعالم الموت وعالم الآخرة كلاهما من غيب الله، وكلاهما يمتد فيه الوجود الإنساني في صورة لا يعلمها إلا الله.

وتمتد في حقيقتها، فتشمل هذا المستوى المعهود في الحياة الدنيا إلى تلك المستويات الجديدة في الحياة الأخرى في الجنة وفي النار سواء[١].

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وقالوا في شرح الحديث: «لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله»[٢].

بهذا الفهم الصحيح لجوانب الحياة، يستطيع الإنسان أن يؤدي رسالته التي نيطت به، ويعتبر نفسه ضيفا في مأدبة يأخذ منها باعتدال، أو ممثلا يقوم بالدور الذي يعهد إليه، وليكن هذا الدور طويلاً أو قصيراً، دور ملك أو شحاذ، فليقم به راضيا لأن ذلك يتعلق بالإرادة الإلهية، ولا يتعلق بالإرادة الفردية.[٣]

من منطلق هذا التصور الحق، لا يأسف الإنسان حينما يأتيه الموت أو يأتي أحد أحبائه لأنه على هذا وطن نفسه، وعاش ينتظر هذه اللحظة، مؤمنا إيمانا عميقا بمرحلية هذه الحياة، وصيرورتها التي لا تتوقف، وأنا فيها غرباء، وعلى دربها مسافرون

٢- ازدواجية الحياة:

هذه الحياة ليست خيرا مطلقا، وليست شرا مطلقا،ليست سعادة محضة، وليست

(١) في ظلال القرآن جـ ٧ / ١٨٠ –١٨١.
(٢) رياض الصالحين ص ٢١٦ –٢١٧.
(٣) محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ص ١٣١.

openkanal.com

قصة من الآلام متوالية الفصول، بل هي مزيج من هذا وذاك. إن قوانين الحياة التي تنظم حركتها تكشف عن هذه الازدواجية ليس هذا فحسب فيما ذكرنا بل حتى: الليل والنهار، والحرارة والبرودة، والسيولة واليبوسة، والمد والجزر والحركة والسكون، والصحة والمرض والولادة والموت.

هذا الفهم العميق لثنائية الحياة، يجعل الإنسان مترقبا لكل الأحداث لا يفاجأ بشيء منها:دياجير الظلام وانبثاق الفجر، ظلمة الليل وتباشير الصباح، آلام الوضع وصراع الموت، الأفراح العارمة والدموع الغزيرة، الثمرة الناضجة والشجرة الجافة.

والله سبحانه يذكر بهذا في بيانه المعجز: ﴿**إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[١].

يقول أبو البقاء الرندى مصورا هذه الازدواجية أصدق تصوير وأحسنه:

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان [٢]

ويقول ضابي بن الحارث البرجمي:

ولا خير فيمن لا يوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

وفي مجال الفلسفة، يعرض شوبنهاور «schopenhauer1860 جانبا واحدا للحياة، هو جانبها المؤلم والمظلم، مغمضا عينيه عن جانب اللذة والنور.

وتعالوا بنا نقرأ، ماذا يقول عن جانب الشر في الحياة: «الحياة شر لأن السعادة هي في

(١) سورة يونس الآية ٢٤.
(٢) المقري : نفح الطيب جـ٤ / ٤٨٧.

الحقيقة مجرد موقف سلبي، والحياة شر لأنها مليئة بالضجر الذي يطوق حياتنا بعد أن نشبع حاجاتنا ... وإذا كان علينا أن نستحضر أمام بصر الإنسان ذينك الشقاء والبؤس الرهيبين اللذين تتعرض لهما حياته باستمرار، لاستبد به الفزع، ولو أنه كان علينا أن نقود المتفائل الراسخ في تفاؤله إلى المستشفيات، وملاجئ العجزة، وغرف العمليات الجراحية وأدخلناه السجون، وغرف التعذيب، وأوكار العبيد، ومررنا به فوق ميادين القتال وساحات الإعدام... إن الحياة ليست إلا صفقة خاسرة لا تغطي تكاليفها [١].

هكذا ينتهي هذا الفيلسوف المتشائم إلى تجاهل كل المعاني الطيبة في الحياة: معاني الخير والحب والفرح والسعادة، ناظرا إليها بمنظار أسود شديد السواد.

ومن جانبنا لا نغفل عن أهمية ازدواجية الحياة الماثلة أمام أعيننا جميعا لأنها توطن النفس البشرية على تقبل المرض من حيث كانت ترجو الصحة، والضيق من حيث كانت تأمل الفرح، والفشل بعد أن كان النجاح قاب قوسين، وعلى هذه الوتيرة يكون الموت هو الوجه المقابل للحياة، يتقبل كل منهما بديلا عن الآخر تقبل المألوف الذي لا بدع فيه ولا شذوذ.

٣- حياة الكرامة:

الحياة هبة من الله، ومنحة منه للإنسان، على أن يعيشها بشقيها: المادي والروحي موازنا بين متطلبات كل من الجسد والروح، مصغياً لنداء السماء دون أن يعير الأرض أذنا صماء.

هذا الرسول ﷺ يرفض الشذوذ على الفطرة الذي ذهب إليه بعض المتكلفين أنفسهم إذا قال أحدهم: أما أنا فأصوم النهار لا أفطر أبدا وقال الآخر: أما أنا فأقوم الليل، لا أنام أبدا، وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء ولا أتزوج أبدا.

فجاء رسول الله ﷺ يعقب بلهجة الغاضب، ليس من أجل نفسه، بل من أجل

(١) العالم إرادة وتخيل ، المجلد الأول ص٤١٣ – ٤١٩ والمجلد الثالث ص ٣٨٣ (نقلاً عن كتاب شوبنهاور للدكتور أحمد معوض ص ١١٩ – ١٢١ و أيضا الدكتور بدوي ص ٢٣٧).

الانحراف بدعوة الحق عن نهجها السليم: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم الله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١].

وما الكلمة المأثورة عن وارث إلهام أبيه ابن عمر: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لأخرتك كأنك تموت غداً. إلا فهم صحيح لنص القرآن الكريم: ﴿**اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾[٢].

وليس يخفى أن من أول ما تتشوف إليه الروح النقية، الحفاظ على حرمتها وصيانة كرامتها.

وهذا شيء مركوز في الفطر، لا يتوقف على فلسفة متفلسف، ولا وحى السماء وأن أكداه جميعا حتى لقد قال الشاعر القديم:

لا تسقنى ماء الحياة بذلة بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

فعلينا إذن أن نحيا هذه الحياة في إباء وشمم، لا كما يريدها لنا طواغيت الأرض عبودية وهوانا « لا ملامة على الإطلاق في حب الحياة كما نريدها، وبالشروط التي نرضاها، فتلك هي القوة أمام الحياة وأمام الموت على السواء[٣] ولكن الملامة كل الملامة أن نقبل ونحرص على أي حياة، كاليهود.فيما حكى عنهم الذكر الحكيم: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ...[٤]﴾ وشتان بين حياة وحياة! وشتان بين اهتمام واهتمام! مع اتحاد النتيجة بالقياس إلى العمر والأجل، والذي يعيش لهذه الأرض وحدها، ويريد ثواب الدنيا وحدها، إنما يحيا حياة الديدان والدواب والأنعام! ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب. والذي يتطلع إلى الأفق الأخر إنما يحيا حياة الإنسان الذي كرمه الله واستخلفه، وأفرده بهذا المكان، ثم يموت في موعده المضروب بأجله المكتوب »[٥]

(١) رياض الصالحين ص ٧٨
(٢) سورة القصص الآية ٧٧
(٣) العقاد : بين الكتب والناس ص٤٤٧
(٤) سورة البقر الآية ٩٦.
(٥) في ظلال القرآن جـ٤ / ٩٦-٩٧ (تفسير سورة آل عمران).

والكرامة الإنسانية، لها في هذه الحياة دعامة أي دعامة، لمن يريد أن يعي ويتذكر: العمر واحد لا تعدد فيه ولا نقص ولا زيادة، سجل منذ الأزل، فهو قدر مكتوب:

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾[١].

رسوخ هذه العقيدة في الضمير الإنساني يملأه بشحنة روحية هائلة وطاقة لا قبل لأحد بها إذ ينطلق لا يلوي على شيء لا خوف ولا هلع، كله الثبات على المبدأ والشجاعة والإقدام،ليعيش الحياة بكل أبعادها هانئا بثمارها متمتعا بخيراتها، في ظلال شريعة الرب، أو قوانين السماء.

تعالوا نتمل معاً بتلك الصور الجميلة لحياة الكرامة والعزة، لكن من منظور ديني فلولا هذا المنظور، لما كانت ثم كرامة، ولما كانت ثم عزة: « في الخارج تزقزق العصافير على فروع الأشجار، ويغني الديك للشمس أنشودته ويفيض النور على الحقول، وتتفتح البراعم، وترفع سوق النبات رؤوسها في ثقة إلى أعلى، ويتصاعد العصير في الشجر هنا أطفال: ماذا يجعلهم بهذا المرح يجرون في جنون فوق الحشائش الندية، ضاحكين، صائحين، متطاردين، أي نشاط، وأي روح، وأى سعادة. ماذا يعنيهم من الموت؟ لعلهم يرفعون الحياة إلى أعلى، خطوة صغيرة قبل أن يصيبهم الموت.

وهناك في الحدائق، يمر المحبون في غسق الليل وهم يحسبون أن أحد لا يراهم إن حديثهم الخافت، يختلط بهمهمة الحشرات وهي تنادي ذكورها إن الظمأ القديم ينطق من خلال الشغف والعيون الناعسة، وينتقل جنون شريف خلال الأيدي المتعانقة والشفاة المتلامسة، إنها الحياة تنتصر[٢]..

من هذا المنطلق الواضح لخوض غمار الحياة بقلب جرئ وجنان ثابت، مهما تقلبت أحوالها نقف مشدوهين أمام رأي القديس أوغسطين (augustjne430) حين يقول:

---

(١) سورة الأعراف الآية ٣٤.

(٢) ديورانت : مباهج الفلسفة جـ٢ / ٣٠٧ .

تطلبون الحياة السعيدة في ديار الموت فلا تجدونها، وكيف تكون الحياة سعيدة حيث لا حياة[١].

هذه مقولة لا شك، خاطئة من منظور التصور الإسلامي للحياة، لأنها ببساطة شديدة، ضد الإرادة الإلهية التي أوجدتنا على ظهر هذه الأرض وهيأت لنا الأسباب، وخلقت الكثير من الموجودات وسخرتها من أجل هذا الإنسان.

فالحياة في ذاتها نعمة، وإن شابتها شوائب آخر،لأنها عطية إلهية هبة من لدن حكيم عليم، فلماذا نتنكر لهذه النعمة، ونرفض الهدية. ألم يقل المولى سبحانه ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[٢] لأن عطاياه ومننه لا تعد ولا تحصى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[٣].

فلماذا ننتقص من الخلق الإلهي بقولنا إن السعادة لا توجد في الحياة؟ إن الحياة الدنيا آتية من مصدر إلهي وهو سبحانه يعلم أنها ناقصة لأنه خلقها وقدرها على هذا النحو الناقص- من مفهوم بشرى- إذ إن الخلق الإلهي كمال من جميع الوجوه ﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ**﴾[٤].

إن الله هو الذي جعلها كما أرادها «ديارا للموت» وإرادته وفعله خير كلاهما خير وحتى القديس أوغسطين نفسه في مناسبة أخرى يقول هذا: لأن الله خير فنحن موجودون[٥].

ربما كان عذر أوغسطين أنه أراد أن يكبح جماح الإنسان، وإقباله النهم على الحياة، وأن يذكره دائما بأن هناك حياة أخرى أفضل وأدوم من تلك الحياة.

٤- إكسير الأمل:

الأمل، هو أهم زاد دنيوي يتزوده الإنسان في مشواره الطويل أو القصير في هذه

(١) الاعترافات ص ٦٩.
(٢) سورة إبراهيم الآية ٧
(٣) سورة النحل الآية ١٨
(٤) سورة الملك الآية ٣
(٥) أتين جيلسون : تاريخ الفلسفة المسيحية ص ١٦٤.

الحياة. الأمل في غد سعيد، الأمل في عمر مديد، إياك واليأس من التحول إلى الأحسن:

من مرض إلى صحة من فقر إلى يسر، من فشل إلى نجاح، من هزيمة إلى نصر الأمل يحدو الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته هو الذي يمسح الدموع ويجفف المآقى، ويلون الحياة بلون جميل ربما يجعلها أنشودة حلوة تشنف الآذان يترنم بها صباح مساء.

لولا إكسير الأمل لأصبحت الحياة كئيبة، وخوت من معناها، ولتملك الذعر الإنسان فهو لا يدري كيف يصنع كأنه الفأر تمتد إليه مخالب قط مفترس فهو يجري في كل مكان بلا هدف ولا غاية، لا شيء إلا الانهيار و العدم.

لولا الأمل لتوقفت حركة الحياة، واختل ميزانها. إنه جزء من العمليات الوجدانية والنفسية والعقلية المصاحبة للطبيعة البشرية إن لم تصحبه إلى الرمق الأخير.

لو كانت الحوداث اليومية التي نراها رأي العين والتي تودي بحياة الآخرين تسلب الإنسان أمله، لما ركب أحد سيارة أو أقلع جواً،أو سافر بحراً، بل لما سار أحد في الطريق خوفاً من الخوف نفسه.

«أن الأمل هو الذي يخيل إلى الإنسان أنه معفى من حكم القضاء وأن الحوادث تصح معه ما أخطأت به مع الآخرين»[(١)].

وهكذا يتغلب الإنسان على الخوف كله، حتى خوف الموت، بقوة الأمل [(٢)] فيعيش هادئ البال مستريح الخاطر، مفكرا في غده وما يتمخض عنه راجياً منه الخير الكثير والفوز العظيم، مبعدا عنه لباس الخمول والقنوط.

---

(١) العقاد : بين الكتب والناس ص ١٩٦ – ١٩٧.

(٢) يرى ابن الجوزي أن من تلبيسات إبليس على الإنسان طول الأمل في الحياة وهذا يدفعه إلى ارتكاب المعاصي وتسويف التوبة (تلبيس إبليس ٤٠٤ – ٤٠٥). والحقيقة أنه ليس بالضرورة أن يكون هذا الأمل المشار إليه من تلبيس إبليس لأنه – كما ذكرنا – جزء من التكوين الأساسي للشخصية الإنسانية. وربما يقترب من العوامل الفطرية أكثر من المكتسبة. إذ إنه لولا الأمل في غد مشرق لتوقفت حركة الحياة.ولولا الامل في رحمة الله ، لأقدمت البشرية على الانتحار قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله أنه يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم.الزمر٥٣)

ثانيا: تغيير أفكارنا تجاه الموت:

ليس يكفي أن تتغير أفكارنا تجاه الحياة، حتى تتغير تماما تجاه الموت.

إن تلك الأفكار الخاطئة تجاه الموت التي ترسبت في العقل الباطن منذ الطفولة الغضة، وسذاجتها المفرطة، والتي تؤثر في سلوك الإنسان، وتوجهه دائما وجهة خاصة، كأنما هذا الموت وحش خرافي من وحوش الأساطير، يظهر في الأفق فاغراً فكيه ليطبقهما بلا أدنى شفقة أو رحمة على من يشاء، بلا معنى واضح ولا هدف معقول.

تلك الأفكار يجب أيضا أن تتبدل، ليتم الغرض المنشود، الانتصار على الموت وفي سبيل هذا لا أقل من التركيز على نقطتين غاية في الأهمية.

١- الموت طور من أطوار النشأة الإنسانية.

٢- الموت ليس شراً كله.

١- الموت طور من أطوار النشأة الإنسانية:

يمر الوجود الإنساني بثلاثة أطوار:

الوجود في هذه الحياة الأولى، والوجود البرزخي، والوجود في حياة أخرى بعد البرزخ.

الطور الأول: ويمتد خلال عمر هذه الأرض منذ عاش الإنسان عليها إلى أن ينقرض الجنس البشري.

الطور الثاني: أعنى الطور البرزخي، ويفهم معناه إذا فهم معنى البرزخ في هذا السياق: والبرزخ في اللغة بعامة: هو الشيء الذي يحول بين شيئين ويرادا به هنا ما بين الدنيا والآخرة: أي الزمان الواقع بين الموت والنشور [١]

أو بعبارة أخرى، هو الفترة الزمنية التي يمكثها الجسم الإنساني في القبر والنفس في عالمها المتجرد، حتى يوم البعث.

---

(١) الجرجاني: التعريفات ص ٣٨ كشاف اصطلاحات :الفنون جـ١/ ١٦٣. وأيضا دائرة المعاوف الإسلامية مادة برزخ ص ٤٦ – ٤٧.

openkandil.com

أما الطور الثالث: وهو ما بعد البرزخ فهو يبدأ منذ قيام الناس من قبورهم لرب العالمين ليحاسبهم على أعمالهم، فإما إلى جنة، و إما إلى نار ثم خلود لا موت معه إذا كان ذلك كذلك، فأين يقع طور الموت؟

الموت هنا يتوج الطور الأول الخاص بالطبيعة البشرية الفانية، فهو وسيلة هامة أو أداة فعالة تساعد البشر في الخلاص إلى طور آخر، هو الجسر الموصل بين الطورين الأولين الذي علينا أن نجتازه أو هو المركبة الصاروخية التي تحملنا من عالمنا هذا إلى عالم البرزخ.

هذا الشيء الميتافيزيقي(metaphysique) الذي يلمس الإنسان لمسه واحدة سحرية، فينقله من حالة الديناميكية المرئية إلى حالة أكثر ديناميكية، وإن تراءت للنظرة الحسية أبعد غورا في الاستاتيكية.

من هذا المفهوم، نرى أن الحياة ممتدة في الزمان والمكان والعمق على تفاوت أي تفاوت. فالحياة لا تنقطع ولا تتوقف، ولكن الوجود الإنساني يتحول من مرحلة إلى أخرى، لكل منها خصائصها وسماتها.

والقرآن الكريم إذ ينوه بشأن الشهداء الأبرار في قوله الحكيم

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[1] إنما يريد إن يلفت أنظارنا إلى أن الحياة البرزخية نفسها ذات تفاوت، وليست على وتيرة واحدة.

إن الموت ليس خاتمة المطاف، بل ليس حاجزاً بين ما قبله وما بعده على الإطلاق إن أردنا استمرارية الحياة في الجملة. هذا النمط من التصور لذو آثار ضخمة في مشاعر المؤمنين، ومعالجتهم لهذه الحياة واستقبالهم للموت بعدها. الآية الكريمة نص في النهى عن حسبان أن الذين قتلوا في سبيل الله وفارقوا الحياة وبعدوا عن أعين الناس أموات ونص كذلك في إثبات أنهم أحياء عند ربهم ثم يلي هذا النهى وهذا الإثبات، وصف ما لهم من خصائص الحياة ومع إننا نحن في هذه الفانية لا نعرف نوع الحياة التي يحياها الشهداء فإن هذا النص الصادق كفيل وحده أن يعلمنا إن الأمور في حقيقتها ليست كما

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٦.

هي في ظواهرها التي ندركها، وإننا حين ننشئ مفاهيمنا للحقائق المطلقة بالاستناد إلى الظواهر التي ندركها، لا تنتهي إلى إدراك حقيقي لها[١].

يقول ماركوس أورليوس (ت ١٨٠م) لا تلعن الموت بل تقبله قبولاً حسناً، ولتعده أمراً تتطلبه الطبيعة، فتحلل وجودنا عملية طبيعية شأنها شان الشباب والشيخوخة والحكيم لا يخاف الموت بل ينتظره ويعده عملية كسائر عمليات الطبيعة.[٢]

ويحكى أن عمر بن عبد العزيز(ت١٠١ هـ) كان يقول دائما: أيها الناس إنما خلقتم للأبد، ولكنكم تنقلون من دار إلى دار[٣].

وإخوان الصفاء ينظرون إلى الموت النظرة السابقة نفسها، وأنه انعتاق كبير للروح من سجنها المادي، وتحرر لها من الجسد، وولادة جديدة لها، ويضربون لذلك الكثير من الأمثلة، لكي يقربوا إلى أذهاننا هذه الصورة الحية: فكما أن الجنين يعيش زمنا في الرحم حتى تكتمل له أسباب البقاء ويحصل على صورته الحقيقية، ثم تأتي الولادة كانعتاق له من السجن المظلم إلى الحياة الفسيحة، ومن الضيق إلى الفرج.

أي أن الولادة تكون له بركة وسعادة، ثم يعيش الإنسان في هذه الحياة فيسعد بمباهجها، ويتمتع بخيراتها. وعندما ينتهي دوره في الحياة ويرتفع صوت النفير معلناً موعد الرحيل يأسف الإنسان على مغادرة هذا العالم، كما أسف سابقاً على مغادرة الرحم المظلم فليعلم أن النفس ما دامت في دار الدنيا فإن المراد منها أن تكتسب بأفعالها الحسنة، وأعمالها الصالحة، صورة تنتفع بها إذا فارقت هذا العالم الفاني والمحل الجسماني.[٤]

فعلى الإنسان أن يقيس هذه بتلك، ويتذكر صراخه السابق لكونه ترك المحل الأول، بعد أن شاهد نعمة الحياة وغدا عندما ينفتح على عالم الملكوت يتحسر مرات على العمر الذي مضى في هذه الأرض.

---

(١) في ظلال القرآن الكريم جـ٤ / ١٤٥ –١٤٦ • تفسيرات آل عمران ٩ وأيضا جـ١٨ / ١٨ (سورة المؤمنين).
(٢) نقلاً عن الدكتورة أميرة حلمي مطر : الفلسفة عند اليونان ص ٤٠٨.
(٣) المبرد : الكامل جـ١ / ٢١٠.
(٤) رسالة جامعة الجامعة ص ٦٥.

ألم يتمن الشهداء بعد أن نعموا بخيرات الجنان أن يعودا إلى الأرض لكي يقتلوا مرات ومرات في سبيل الله؟ فهكذا كل من أسلف الخير وقدم المعروف ود لو كان استزاد.

وأديب الفلاسفة، في نظرته العميقة المتأملة للموت، يصل إلى نفس النتيجة السابقة، إذ يقول: «إذا كانت حياة ما منقطعة لا محالة،ثم كان ذلك يفضي إلى حياة أخري أبدية، ووجود سرمدي، صار هذا الموت غير مكروه إلا بقدر ما يكره من الدواء المر إذا أدى إلى الصحة».

فالإنسان المستبصر الذي يرى أن أخراه أفضل من دنياه، وآجله خير له من عاجله، يسترسل إلى الموت استرساله إلى الدواء الكريه، والعلاج المؤلم ليفضي به إلى خير دائم[١].

الموت إذن مرحلة من مراحل النشأة الإنسانية، ينتقل الإنسان بواسطته- من وجهة النظر البشرية- من العالم المرئي إلى العالم اللامرئي، من عالم المحسوسات إلى عالم الروحانيات.

والعكس صحيح أيضا إذا غضضنا النظر عن هذا الرداء السميك الذي تخلصت منه الروح: أي أن الإنسان ينتقل من عالم الخفاء إلى عالم الظهور من عالم الجسد والتغير إلى عالم الروح والثبات.

إن ما نسميه اختفاء الذاهب في رحلة الموت عن أبصارنا، هو ظهور شديد له في الحقيقة، لكن أبصارنا لا تستطيع أن تستكشف ما وراء الستار.

إن الموت بالمقاييس الصحيحة هو ولادة جديدة وخلاص إلهى للإنسان الذي عرف حقوق الله عليه ينتقل به إلى عالم النور والمحبة عالم الصفاء والخير عالم الفيض العميم، والملكوت الأعلى.

٢- الموت ليس شرا كله :

أشياء كثيرة (الأفعال والأفكار والموضوعات) ليست في ذاتها كريهة كل تلك الكراهية، ولكن تصوراتنا الخاطئة، هي التي تلونها بجميع الألوان السوداء.

(١) الهوامل والشوامل ص ٧٤.

ومن هذا القبيل الموت؛ إن الموت ليس في ذاته ذلك الشيء الذي تنخلع له القلوب كأنما هو أخوف من الخوف نفسه، لا أقول: بدليل إن كثيراً من الناس يقدمون عليه مختارين، فربما كان ذلك لأنه من وجهة نظرهم أهون الشرين، ولكن أقول فى ضوء ما أسلفنا، وفى ضوء ما سيجيء.

علي الرغم من كراهيتنا الشديدة للموت، فلاشك أنه مما يصدق عليه قول الله سبحانه: ﴿**عَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾.

وأول ما في الموت من الخير؛ انه ينقذنا من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا فالنفس البشرية أمارة بالسوء حتى لو كنا صالحين، فإن ازدواجية الحياة تنعكس على سلوكنا، فإذا هي شرور متراكمة، ومع مرور الأيام تتدافع نزوات النفس، ومغالطات الضمير والالتصاق بالأرض،والطمع في متاع الدنيا وشهواتها: كل أولئك يفعل أفاعيله، والموت ينقذنا في لحظة واحدة وبضربة واحدة من كل هذا.

ثم الحياة- فيما لا يدخل تحت اختيارنا- لا تسير على وتيرة واحدة ولا تعطينا كل ما نتمناه على طبق من ذهب، أو حتى من صفيح، كلنا يتمنى قوة في الصحة لا تضمحل، فإذا أقبل المرض كالوحش المفترس، وأنشب في الجسد مخالبه، وأعمل فيه أنيابه،فلا تسل إذ ذاك عن آلام النفس المروعة وعذاب الجسم المستديم.

وألا يكون الموت حينئذ هو الراحة الكبرى سيما إذا أعوز الطب، وعز الدواء، وإلا يكون تمنى الموت إذ ذاك دون جدوى محنة مضاعفة يصدق فيها قول سوفكليس:ليس الموت أسوأ شرور الحياة، فشر من الموت أن نتمناه ولا نلقاه.

أمن الحب والخير في الجانب الإلهي،أو حتى من المقبول في المفهوم البشري أن يظل الإنسان يعذب كل يوم بلا انقطاع، وبلا أمل في النجاة كإنسان الأساطير برومثيوس[١]،

(١) أسطورة يونانية خلاصتها أ ن الأله قامت بتوزيع المواهب والقدرات على جميع المخلوقات ولما جاء دور الإنسان لم يتبق له شئ ، فعطف عليه برومثيوس ،وسرق له النار وفنونها ،فعاقبته الاله بهذا العقاب (أميره مطر : الفلسفة عند اليونان ص١٢٦).

تأكل لحمه الوحوش المفترسة والطيور الجارحة حتى إذا أتت عليه، عاد كما كان مرة ثانيه، وهكذا دواليك.

أو مثل سيزيف[١] الذي يدفع الصخرة إلى أعلى، وكلما انتهى إلى القمة، سقطت منه إلى السفح ليدفعها من جديد إلى أعلى، وهكذا دواليك؛ عذاب دائم بلا مبرر مفهوم أو حكمة واضحة.

وبعد هذا وذاك، أليس أحيانا يكون اللحاق بالأحبة، أحب من الحياة نفسها حتى بالنسبة للحيوان الأعجم. تحكي الروايات أنَّ في اسكتلندا تمثالاً يسمونه تمثال الوفاء وما هو إلا تمثال كلب حزن على صاحبه الذي مات وأصر على النوم جوار قبره بكل حزن الدنيا مجسماً في ملامح وجهه لا يأكل ولا يشرب حتى أصبح جثة هامدة.

قد تقول: الكلب أشد وفاء من الإنسان! ولكنى أقول إنها قضية كاذبة، إذا أخذت بهذا الإطلاق هذا يهودي، من بني قريظه- فيما يروي ابن كثير –اسمه الزبير بن باطا، استوهبه ثابت بن قيس ليد كانت عنده من الرسول ﷺ وهو يقتل رجال بني قريظة، وفق شروط استسلامهم – واستوهب ماله وولده.

فهل قرت عينه بالعيش الرغيد بعد ذهاب أحبته من سادة قومه؟ كلا ثم كلا، بل جعل يسأل عنهم واحداً واحداً، ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟ حتى أتى على أسمائهم كلها،فلما أجيب بأنهم قتلوا، قال من خلال دموعه المنهمرة: أسألك يا ثابت بيدي عندك، إلا ألحقتني بهم، فما في العيش خير بعد هؤلاء الأحبة، فقدم فضربت عنقه[٢].

لست في حاجة بعد هذا إلى الحديث عن الآثار الواردة في اجتماع الأحبة في أثناء حياة البرزخ، فربما كان فيما قبله بلاغ، وليست دعوة إلى الجزع، بل تبشير بأن الموت يفرق شملا ويجمع شملا، أي أنه يشج بيد ويأسو بأخرى.

وهنا حقيقة هامة لا ينبغي إغفالها إذا يقول زور اليوناني: كل فعل إنساني يحمل

(١) عبد الغفار مكاوي : ألبير كامى ص٤ وما بعدها.
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٤ / ١٢٥

مشكلة أو يؤدي إلى مشكلة،والموت وحده هو الذي لا مشكلة فيه.

فمن هذا المنظور، أليس الموت هو حلال المشكلات،إننا نحب الحياة بكل تأكيد ولكن المشاكل التي تملؤها، تقلل من سعادتنا وتملأ النفس هما وكمدا.

وصدق المعري (ت٤٤٩هـ) إذا يقول:

تعب كلها الحياة فما أعجب ... إلا من راغب في أزدياد

ضجعة الموت رقدة يستريح ... الجسم فيم والعيش مثل السهاد

لقد كان صادق مع نفسه، ومع الواقع من حوله: مع نفسه لأنه خبر آلام الحياة، وشرب حتى الثمالة كأسها المريرة المفعمة بهمومها: إذا لم يكف العمي حتى قارنه الفقر والمرض. وكان صادقا مع الواقع من حوله. لأنه لمس ظلم الإنسان، ومحنة البشرية المتمثلة في تناحرها وأطماعها التي لا تنتهي.

ومع هذا فعجبه أغفل طبيعة الفطرة البشرية، فإغراءات الحياة وسحرها للناس لا يقاوم، فعشقوها، و طلبوا الزيادة وأي زيادة.

أما في بيته الثاني فهو يقرر حقيقة هامة: راحة الجسم بعد عناء العيش الذي يشبهه بالسهاد الطويل المحض: أي أن الموت إجازة كبرى لهذا الجسد كي يستريح « فهو إجازة لا تتعرض لشك ولا غموض، يمنحها الله للناس حين يريح منهم الحياة، وحين يريحهم من الحياة. [١]

ومن الجدير بالإشارة إلى أن الموت ما هو إلا إطلاق سراح سجين لأنه تحرير للروح من سجن الجسد- كما يقول إخوان الصفاء- وسجن الحياة الدنيوية الكبيرة، لتنطلق وتطل على عالم جديد كل ما فيه مثير وغريب.

«اعلم أن المؤمن ينكشف له غيب الموت من سعة جلال الله، ما تكون الدنيا إليه كالجب الضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف[٢].

(١) طه حسين : ألوان ص ٢٩٩

(٢) الإحياء جـ٤ / ٤٩٦ –٤٩٧

وأخيراً، ألا يكفي من نعمة الموت أنا ننقل إلى جوار البر الكريم الغفور الرحمن الرحيم، بعيداً عن الجوار الناقص الذي عرفناه وسئمناه. يقص علينا القرآن الكريم:إن آسيا امرأة فرعون عندما طلبت من الله أن يبني لها بيتا، اختارت الجوار الإلهي، والمعية الإلهية قبل البيت،﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾[١]. فالموت هو الذي سينقلنا إلى هذه المعية الإلهية «والعندية الإلهية» «والقرب الإلهي».

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته: وا حزناه! فقال: بل واطرباه غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه[٢].

وقال مالك بن أنس (ت١٧٩هـ) في العشية التي قبض فيها لعواده عندما سألوه: كيف تجدك؟ ما أدري ما أقول لكم، إنكم ستعاينون من عفو الله تعالى، ما لم يكن في حساب، ثم ما برحنا حتى أغمضناه[٣].

وكلموا ذا النون المصري (ت٢٤٥ هـ) وهو في النزع، فقال: لا تشغلوني فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالى معي[٤].

وقيل للجنيد (ت ٢٩٨هـ).إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال: لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقا.[٥]

وفي ختام هذه النقطة،هل لي أن أقول إنه قد تسنى لنا – ولو إلى حد ما – رسم بعض الخطوط العريضة لوسائل تغيير أفكارنا نحو الموت، حتى لا نلقاه بكل ذلك الرعب والهلع؟ لعل وعسى.

«قال أبو علي الرازي:صحبت الفضيل بن عياض (ت١٨٧ هـ) ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مبتسما،إلا يوم مات ابنه علي فقلت له في ذلك، فقال: إن الله أحب أمراً

(١) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩١
(٢) الرسالة القشيرية جـ٢ / ٥٩١
(٣) الرسالة القشيرية جـ ١ / ٤٢.
(٤) الرسالة القشيرية جـ ١ / ٣٠٤.
(٥) الرسالة القشيرية جـ١ / ٥٩١.

obeikandl.com

فأحببت ذلك.[١]

«وحكى عن بعض الصالحين أن ابنا له مات فلم يُر به جزع، فقيل له في ذلك، فقال: هذا أمر كنا نتوقعة،فلما وقع لم ننكره[٢].

فليكن لنا في مثل هذين الرجلين الصالحين أسوة حتى والموت ينتزع أنفسنا نحن من بين جوانحنا.

ثالثا: مواجهة الموت:

المواجهة بين الموت والإنسان – كما سلف أن قررنا – مواجهة حاسمة، معلومة النتائج وكل ما يستطيع الإنسان أن يتسلح به لهذه المواجهة فليس طبعا لسحق الموت أو حتى تخفيف قبضته الحديدية، وإنما هو لتوطين النفس على النهاية المحتومة، وتدريبها على الرضا بالقدر الذي لا بد من نفاذه.

وكثيراً مما سلف مفيد ونافع في هذا الصدد، ولكن إليك مزيد مما يعن للفكر ويتوارد على الخاطر، ونحن جميعاً مع الموت وجهاً لوجه.

١- الصـــبر:

الصبر حالة نفسية أو طاقة روحية تغمر الإنسان وتسلحه بإرادة صلبة لا تلين، وجلدا وقوة احتمال لا تنوء بالأعباء الثقال من المصائب والآلام سيان في الموت أو في الحياة ولعلها أجدى ما يلوذ به الإنسان في كل مالا قبل له بالتصدى، لصده أو رده على أعقابه.

ومن ثم ركز القرآن الكريم عليها، وبصر المسلمين بقيمتها في الدنيا ومثوبتها عند الله.

يقول سبحانه: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾.

– ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞**

(١) الرسالة القشيرية جـ١ / ٧٣.
(٢) المبرد: الكامل جـ ١ / ٣٢٤.

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[١].

- ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.[٢]

- ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاَةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.[٣]

ولعلك تلحظ في تلك النصوص الكريم، كيف كان اهتمام القرآن العزيز بالدعوة إلى الصبر حتى لقد قدمها على الصلاة، التي هي عماد الدين إذ كانت أوسع شمولاً، وأوغل في كل زمان ومكان بل وفي كل عمل حتى الصلاة نفسها في حاجة إلى الصبر، أما الصبر فليس في حاجة إلا إلى توفيق الرب وتصميم القلب.

ثم جاءت البشارات تترى للصابرين - لا سيما وقت النكبات - حيث بشرهم بالرحمة والمغفرة.

فالصبر إذن: من القيم الأخلاقية العالية، التي دعا إليها الذكر الحكيم وقد وعد الله سبحانه رسوله الكريم، لتحمل ما لاقي من الصعاب والآلام في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. وللموت في ذلك نصيب أي نصيب.

هذا عمه حمزة (ت ٣هـ) أسد الله يلقى مصرعه يوم أحد، ويمثل بجثته، حتى ليتملك الرسول ﷺ الغضب، ويقسم ليمثلن من أجله بثلاثين من أهل مكة، إن قدر عليهم ولكن تنزل الآيات القرآنية، تواسيه وتخفف من غضبه، وتدعوه إلى طمأنينة الصبر وعدالة الحكم:

- ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۞ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۞ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ

(١) سورة البقرة الآيات ٤٥-١٥٥-١٥٧.
(٢) سورة الرعد الآية ٢٢
(٣) سورة الحج الآية ٣٥

اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[١].

وهذه صفية بنت عبد المطلب، أخت حمزة لأبيه وأمه تريد أن تلقى نظرة على الفارس الصريع، فلما أمر الرسول ﷺ ابنها الزبير بردها كيلاً ترى أخاها وقد مثل به.

قالت: ولم وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فما زادت على أن صلت عليه واستغفرت له، واسترجعت.

وعن أبي يحي صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[٢].

ومواقف صحابة الرسول ﷺ في هذا المجال كثيرة، حتى أن الخنساء التي ملأت في جاهليتها الدنيا حزنا وبكاء وعويلاً وشعراً على أخيها صخر، عندما استشهد أبناؤها الأربعة – وقد خلقها الإسلام خلقا جديدا – قالت: الحمد الله الذي شرفني باستشهادهم قبل موتى، اللهم اجمعني بهم في مستقر رحمتك يوم القيامة.

ومما يؤثر قول على بن أبي طالب (ت٤٠هـ) في بعض تعازيه:« عليكم بالصبر، فإن به يأخذ الحازم، وإليه يلجأ الجازع، وقوله للأشعث بن قيس: «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت موزور»[٣].

هذا أبو حراش الهذلي، وهو أحد حكماء العرب، يذكر أخاه عروة بن مرة، ويعزي النفس لفقده:

تقول أراك بعد عروة لا هيا ... وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبني أني تناسيت عهده ... ولكن صبري يا أميم جميل[٤]

(١) سورة النحل الآية (١٢٦/ ١٢٨)
(٢) رياض الصالحين ص ٢٥
(٣) المبرد: الكامل ج ٤ / ٣
(٤) المبرد الكامل جـ٤ / ١٧ الأغاني جـ ٢١/ ٢٢٢

وهذا إبراهيم بن المهدي يخاطب ابنه الذي لقي حتفه، ويتسلى بأنه سيلقاه يوما إن قريبا أو بعيدا:

وإني وإن قـــدمت قـــبلي لعـــالم بـــأني وأن أبطـــأت عنـــك قريـــب
وإن صـــباحا نلتقـــي في مســـائه صـباح إلى قلبـي الغـداة حبيـب [١]

وفي مجال الفلسفة، يضطلع الرواقيون بهذه المهمة، حيث كانت فلسفتهم صبراً كاملاً في مواجهة شدائد الحياة وأحزان الموت. ويلخص ابكتيتوس الرواقي (ت ٩٥م). ذلك إذ يقول: احتمل وتزهد يعنى بذلك أن يدعو الإنسان إلى احتمال الأذى والصبر على المصيبة وعلى جميع ما يكدر الخاطر ويقلق البال، ثم الصبر عما فاتنا، والزهد في الأشياء التي تخرج عن مقدورنا»[٢]. يقول أحد الحكماء: إن من قل صبره عزب رأيه واشتد جزعه فصار صريع همومه وفريسة غمومه. [٣]

خلاصة القول، إن الصبر سلاح يحمله الإنسان في مواجهة الموت، وهو أمضى سلاح، لحمل النفس على تقبل آلامه وتجرع كأسه في النهاية.

٢- الشجاعة في مواجهة الموت:

الموت قادم لا محالة، والأعمار محددة باللحظات لا بالدقائق والساعات، فلماذا نخاف أن نتعرض له؟ عندما يملي العقل ذلك على تفكير الإنسان وسلوكه، يقول شيشرون (ت٤٣ ق.م) أريد أن أموت ولكني لا أبالي أن أموت.

إن هذا المنطق فيه الكثير من الصحة والصدق، فكل منا يحب الحياة ويعشق لحظاتها، لكن علينا أن نقبل الموت عندما يحين حينه برضا وطمأنينة.

ووقائع التاريخ تحكي الكثير عن أولئك الذين واجهوا الموت بإقدام وشجاعة منقطعة النظير، وقد كان لصحابة الرسول ﷺ، قصب السبق في هذا المضمار.

هذا خالد بن الوليد، القائد المظفر، وسيف الله المسلول، يخوض من المعارك ما قد

(١) المصدر السابق ص ١٨
(٢) لفلسفة الرواقية ص ٢٠٣
(٣) الماوردى:أدب الدنيا والدين ص ٢١٧.

يتجاوز الحصر، ويواجه الموت كفاحاً في ميادين القتال، فلا يأتيه إلا وهو على فراشه، فيقول كلمته الخالدة: لقد شهدت كذا و كذا زحفاً وما في موضع شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت العير (حمار الوحش)، فلا نامت أعين الجبناء!! (١)

وهذا حنظلة بن أبي عامر بطل أحد، يلبي نداء المعركة ليلة عرسه فتغسله الملائكة.

ومنهم من ألقى تمرات من يده كان يأكلها قائلا إن عشت حتى آكل هذه التمرات (٢) إنها لحياة طويلة وتقدم حتى استشهد قائلا: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾. (٣)

والتابعون أيضا واصلوا السير على درب: إحرص على الموت توهب لك الحياة.

فهذا سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) قدم حياته فداء لإعلاء شأن الإسلام، وتحديا للقوة الباطشة المتجبرة، حين قتله الحجاج بن يوسف الثقفي.

وأبو منصور الحلاج (ت٣١١هـ) قتلته السياسة، وصلبته على صليبها الخسيس، فلم يجبن ولم يتراجع.

والفرق الإسلامية في تنازعها وصراعها قدمت مئات من الأبطال، لا سيما الخوارج الذين كانت جرأتهم فيما يعتقدونه الحق، واسترسالهم إلى الموت مثار الدهشة والإعجاب.

حتى الذين نسميهم أصحاب الأهواء من ذوي النحل المختلفة، يجودون بأنفسهم في سبيل ما يعتقدون دون تهيب أو وجل.

فالموت هو الموت، فلماذا ننكص على أعقابنا ولله دره المتنبي إذا يقول:

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم (٤)

(١) ابن قتيبة : المعارف ٢١٦
(٢) رياض الصالحين ص ٥٧.
(٣) سورة طه الآية ٨٤
(٤) ديوان المتنبي ص ٢٣٢

openkandil.com

وإذا لم يكـــن مـــن المـــوت بـــد فمـــن العجـــز أن تكـــون جبانـــا[١]

ومن أولئك الذين واجهوا الموت بشجاعة عجيبة، هدبة بن خشرم العذري وكان قتل زيادة بن زيد العذري،وحكم عليه بالإعدام في عصر معاوية، ولما خرج ليعدم «بالحرة» جعل ينشد الأشعار فقالت له حُبي المدينية: ما رأيت أقسى قلبا منك! أتنشد الأشعار وأنت يمضى بك لتقتل؟ فأنشد:

ولست بمفراح إذ الدهر سرني ولا جازع من صرفه المتقلب

ثم أقبل على أبويه فقال:

ما أظن الموت إلا هينا ان بعد الموت دار المستقر[٢]

ونختم هذه النقطة ببعض التأملات العميقة لرجال التصوف المعتدل.

يقول الحارث المحاسبي (ت٢٤٢ هـ): « استعد إذا جاءك الموت لا تسأل الرجعة[٣].

وقيل لبعض الصوفية وقد أظهر الشجاعة في مواجهة الموت: » أتحب الموت؟

فقال: القدوم على من يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره[٤]

٣- طرافة رحلة الموت:

من الخصائص النفسية للإنسان حبه لاستكشاف المجهول، ورغبته العارمة في البحث عن الطبائع الخفية للأشياء، ومحاولته الدائبة لاكتناه أسرارها، وقد قدم حياته رخيصة من أجل اكتشاف هذا المجهول: سواء غاص في أعماق البحار، أو حلق في أجواز الفضاء، أو داخل المعامل والمختبرات وكثير من هذه النتائج العلمية التي توصل إليها كان ثمنها غاليا.

---

(١) ديوان المتنبي ص ٤٧٤

(٢) المبرد : الكامل جـ٤ / ٨٥ : ٨٧ وقد أورد الأصفهاني قصته كاملة ، ومقتطفات من أشعاره (الاغاني ص ٢٥٤ – ٢٧٢).

(٣) طبقات الصوفية ص ١٧

(٤) الرسالة القشيرية جـ ٢ / ٥٩٧

obeikandl.com

وهل نسينا قصة عباس بن فرناس الذي بدأ أول محاولات الإنسان لركوب الهواء (الطيران) والكشف عن أسرار لم يتوصل العلم إليها إلا أخيراً كانت فيها نفسه.

والكشوفات الجغرافية من عهد كولومبو ومن قبله ومن بعده في اتجاه غرب الكرة الأرضية أو شرقها، أو في اتجاه منابع النيل ومجاهل أفريقيا، أو في اتجاهات أخرى ليس لها حصر تطؤها أرجل الرحالة والمكتشفين من كل لون وجنس، كل هذا بثمن غال.

ورحلة الموت هي من أطرف هذه الرحلات بجميع المقاييس وليس مقياس الطرافة المتعة فحسب، فلو لم يكن فيها إلا استكشاف المجهول لكفي والمشكلة أن كل من يخوض غمار هذه الرحلة قاطعا دروبها لا يعود إلينا كي يقص علينا طرائفها وألغازها؟

على أن من الناس من يصورها متعة خالصة. إذ يمزق كل ما هنالك من أستار مسدلة على أسرار لم يرها أحد قط من الأحياء فيفضي إلى عالم النور والمحبة، ويرقى إلى ذروة الهناءة والسعادة.

يقول أحد العلماء المتخصصين في دراسة عالم الأرواح ولهم باع أي باع في هذا المجال: «عند ما ينقضي أجلنا على سطح الأرض، تعيد الطبيعة هذا الجسم البالي إلى تربتها، وتطلق ذلك البناء الأثيري الذي كان خلال الحياة الأرضية مقيدا بالحدود الفيزيقية.[١]

أما الشذرات التي نسمعها من هنا وهناك عن طبيعة هذه الرحلة فلا تروى غلة، ولا تثلج صدراً ولا تشغل عقل ظامئ للمعرفة.

على أن الكثرة الغالبة مما تضمنته الكتب الدينية والعلمية في هذا الصدد يبدو كأنه من قبيل التصورات البشرية والأمنيات النفسية.

أعتقد أن رحلة الكشف عن المجهول هذه (رحلة الموت) تعد مطلبا ملحا من مطالب الإنسان المتغلغلة في أعماقه، والتي تؤرق ليله، وتحير عقله حتى إذا طفر بها فكأنما سخر له بساط الريح الأسطوري، وفتحت أمامه مغاليق المجهول، وآفاق لا متناهية، فيها

(١) على حافة العالم الاثيري ص ١٩٩

مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

٤- استمرارية الحياة:

على الإنسان أن يكون عنده اعتقاد جازم بل يقين واضح، أن الموت لا يعني استئصالا لجذور هذه الحياة. وأن الحياة مستمرة ومتجددة وموته لا يعني نهاية لها أو لهذا الكون.

والإنسان نفسه مستمر أيضا بشكل ما، وعلى نحو خاص، ونستطيع أن نجمل أوجه هذه الاستمرارية في العناصر التالية:

أ- الإنسان جزء من النوع الإنساني الذي لا ينقرض، بل يستمر تناسله وتوارثه للأرض فهو بمعنى ما مستمر في الحياة ممثلا في شخص الإنسان والإنسانية.

يقول ديورانت: « إذا كان من وظيفة الفلسفة أن تخلع على الحياة معنى يقلل من قيمة الموت فستبين الحكمة أن الفساد إنما يصيب الجزء (الإنسان) وأن الحياة نفسها لا تموت حين تموت »[(١)]

ب- أولاد الإنسان من بعده، امتداد لحياته – سواء أكانوا سلالة نسبية أم روحية تعليمية – وإلى شيء من ذلك يشير القرآن الكريم إذ يقول: ﴿**وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ**﴾[(٢)].

فالإنسان يحب ولده، لأنه يخلفه في الوجود بعد عدمه، فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له، فلفرط حبه في بقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه، لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً[(٣)].

وكذلك حديث الرسول ﷺ: «**إذا مات ابن آدم أنقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة**

(١) مباهج الفلسفة جـ ٢ / ٣٠٥
(٢) سورة النحل الآية ٧٢
(٣) الإحياء جـ ٤/ ٢٩٧ ، ٤٥٦ ، وأيضا في ظلال القرآن جـ١٤ / ٢٦٣ (تفسير سورة النحل)

جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به»[١].

ويقف شوبنهور (ت ١٨٦٠م) أمام هذه النقطة بشيء من التساؤل والتأمل فيقول: « ألا نستطيع أن نهزم الموت أيضا؟

بلى، يمكن أن نهزم الموت بالتناسل والتضحية من أجله.

فكل كائن طبيعي عند بلوغه مبلغ النضج يسارع في التضحية بنفسه من أجل التناسل: وذلك ابتداء من ذكر العنكبوت والزنبور، حتى الإنسان، والتناسل هو الهدف الأقصى لكل كائن، وغريزته الأقوى لأنه بذلك يستطيع أن يهزم الموت »[٢]

ويقول الشاعر محمد إقبال (ت١٩٣٩ م) في تأملاته للآية الكريمة: ﴿**فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَى**﴾[٣] الفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة لا تقاوم في الحصول على ملك لا يبلى، ولكن لما كان الإنسان كائنا فانيا يخشى انقضاء سيرته بموته، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعا من الخلود الجماعي بالتكاثر والتوالد[٤].

وهذا يوضح لنا منشأ تلك الرغبة العارمة عند الإنسان في التناسل وحرصه الدائب على الإنجاب وسعيه الحثيث في سبيله وربما طلب ذلك بكل وسيلة ممكنة شرعية وعلمية.

ج – ما خلف الإنسان من الطيبات التي تتجلى في الأعمال النافعة، والأفعال الكريمة التي تبقى الألسن رطبة بذكراها، وأيضا توجيهاته الصالحة لأبناء مجتمعه وتوجهاته النافعة بالخير عليهم، وكتبه واجتهاداته، إذا كان قد ترك لنا أفكارا تنير الطريق لمن يأتي بعد.

وهذا مصداق قول الرسول ﷺ: «**أو صدقة جارية أو علم ينتفع به**».

---

(١) رياض الصالحين ص ٣٧١

(٢) أحمد معوض : شوبنهور ص ١٠٨ والدكتور بدوي شوبنهور ص ٢٤٥

(٣) سورة طه الآية ١٢٠.

(٤) تجديد التفكير الديني ص ١٠٢

obeikandl.com

د- في قلوب وعقول من أحبوه:

فالإنسان الذي رحل موجود على نحو خاص، فالذين أحبوه يحملون ذكراه في قلوبهم ويكنون له كل الوفاء والحب، تردد الألسن اسمه وتلهج بالثناء على سيرته الذكية وذكراه العطرة. وهو موجود في عقولهم يهتدون بتعاليمه، ويقتفون خطواته، ويتابعون ما انتهى إليه. إذا فهو الغائب الحاضر، الراحل الموجود، والميت الحي.

وهذا ما نشعر به مع أحبائنا الذين مضوا إلى المصير المحتوم: فنذكرهم دائما، ونردد سيرتهم ونتصور مواقفهم، ونعيد حكاياتهم، ونقص نوادرهم. فيعيشون معنا وهو غائبون، ويحضرون في قلوبنا وعقولنا وهم ذاهبون يقول أحد الصوفية: « العبرة أن تجعل كل حاضر غائباً، والفكرة أن تجعل كل غائب حاضراً »[١]

ويقول هنريك ابسن: «الشيء الذي نفقده هو وحده الذي نملكه. وما هو كائن لا وجود له، وما ليس كائنا هو الوجود الوحيد»[٢].

وقد فلسف هذه النقطة أحد فلاسفة الوجودية بكثير من العمق والإحاطة فأجاد وأصاب إذا يقول:

«إن من شأن الوفاء أن يجئ فيتحدى كل غياب، لأنه يشعرنا بأن المحبوب، لا يمكن أن يموت، وأن الحب نفسه أقوى من الموت.

«وجبريل مارسل» يحاول أن يبين لنا مع سقراط أن تحطم القيثارة لا يعني فناء النغم. ومن هنا يقرر أن ثمة صلة روحية بين الأحياء والموتى بدليل أن هؤلاء الغائبين ليسوا في نظرنا بمثابة موضوعات أو أفكار بل هم شخصيات تظل مرتبطة بوجودنا الشخصي وتظل هناك علاقة ما تجمع بيننا وبينهم.

حقاً قد يستعصى علينا في كثير من الأحيان أن نحدد على وجه الدقة نوع هذه الصلة التي تربطنا بهم ولكن الميت المحبوب قد يبدو لنا في بعض الأحيان وكأنه « حاضر » أمامنا

(١) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ص ٦٠
(٢) هنريك أبسن : بير جنت ص ١٢

أو كأنما هو شخص مقنع يدور بيننا وبينه حوار كهذا الذي يدور بين الأنا والأنت ولولا وجود ذلك الاستمرار الحي الذي يجعل من كل ذات حقيقة أونطولوجية تعلو على كل صيرورة ظاهرية والتجربة نفسها شاهدة – كما يقول ما رسل – على إمكان قيام ضرب من التراسل الروحي بين الأحياء والموتى »[١]

٥- وقوع الموت من أفعال الله الخيرة:

لقد سلف تحت عنوان: « الموت ليس شراً كله » ما قد يغنى عن العودة إلى الموضوع تحت عنوان جديد، ولكني أود أن أعرض هنا بعض نماذج فلسفية قد يكون فيها أو في مناقشتها بعض العون في مواجهة الموت لشتى صنوف بني الإنسان.

تقبل وقوع الموت كفعل من أفعال الله الخيرة، يعد أمضى وأقوى سلاح، لنؤمن أن الإرادة الخيرة هي التي اختارت هذه النهاية الطيبة، وعلمه الأزلي قد قرر لنا ما هو خير وما هو شر.

المطلوب من الإنسان هو التسليم المطلق للإرادة الإلهية، وتقبل كل ما اقتضته من وقائع مهما غمضت علينا أغراضها، وتعذر علينا فهم الحكمة الكامنة وراءها اعترافا بقصور عقولنا عن اكتناه المحدود، فما بالك ما وراءه.

ولنصغ بكل جوارجنا، ونستوعب بكل عقولنا، ونؤمن بكل ضمائرنا، ما يقوله هؤلاء الحكماء والفلاسفة.

ونبدأ بفيلسوف الرواقية، ابيكتيتوس الذي يقف طويلاً محللاً لنا طبيعة الأشياء ويفرق بين نوعين منهما: أشياء تتعلق بقدرتنا واختيارنا وأشياء لا تتعلق باختيارنا ولا قدرة لنا عليها « هذا الفهم لحقيقة الأشياء يرشد الإنسان إلى أن حصولها أمر ضروري وأن تجعله يذعن لحدوثها ويقبلها كما هي، وكما أوجدها مصرفها الأعظم، دون أن يطمع الإنسان في تغييرها أو تبديلها وفقاً لرغباته أو يناله منها كدر أو ابتئاس:« إن ما يحدث

(١) زكريا إبراهيم : دراسات في الفلسفة المعاصرة ص٥٠٠

للناس من اضطراب ليس من جراء الأشياء، بل من جراء أحكامهم على الأشياء »[١]

بهذا الفهم العميق لحقيقة الأمور يهمس ابيكتيوس للإنسان قائلاً: ما الذي يجب علينا أن نريده؟ أمر واحد. أن نريد ما أراده الله. عند ذلك يتلاشى.الخوف من أنفسنا، وتنعدم الشكوى ويبطل التذمر.

ثم يقول ابيكتيتوس موجها حديثه لتلميذه: إنك عندئذ لن تكون كأبطال المسرحيات، ولن تقول للإله، كما قال بريام والد هكتور بطل ترواده، عندما بلغه دمار المدينة وموت أفراد أسرته، لن تقول مثله للإله: أهذا ما كنت تدخره لشيخوختي « إنك ستقول مثل سقراط قبل موته: لتكن مشيئتك يا إلهي ».

ثم يواصل ابيكتيتوس نصائحه قائلاً: «لا تقل فقدت شيئا، بل رددته مات ابني، بل رددته أو ماتت امرأتي، بل رددتها، وقل ذلك عن سائر الخيرات والأشياء».

واعتبر نفسك في هذا العالم كما يعتبر المسافر نفسه في فندق من الفنادق وعليك ألا ترغب في أن تتم الأشياء على النحو الذي تريده أنت، بل عليك أن تريد أن تتم الأشياء على النحو الذي تتم هي عليه.

تذكر أنك في هذا العالم كممثل، تلعب في مسرحية هذا الدور الذي اختاره لك صاحب المسرح.

إن أعطاه لك قصيراً فليكن قصيراً، و إن كان طويلاً فالعبه طويلاً.

أما اختيار الدور فهو من شأن غيرك. إذا وضعت الموت والمصائب كلها نصب عينيك، فلن تقلق من أي شيء ولن تسرف في أي رغبة[٢].

وفي آخر نصائحه يقول ابيكتيتوس: « لتتوكل على الله، ونحن واصلون في رحلة الحياة إلى مقرنا بأمان.

ولنتعلم أن نريد ما أراد الله وأن لا نريد مالا يريد: ولنتق فتنة المصائب. فإذا أراد الله

(١) عثمان أمين : الفلسفة الرواقية ص ٢٠٠ : ٢٠١.
(٢) نجيب بلدي : مراحل الفكر الأخلاقي ص ٢٩ –٣٢

أن يسترد ما منح، فلنكن له حامدين ولفضله شاكرين[١].

وإذا انتقلنا إلى الفلسفة الإسلامية نجد الرئيس ابن سينا (ت٤٢٨ هـ) يقول في الرسالة التي وقفها على مناقشة مشكلة الموت: « إن الحكمة الإلهية البالغة والعدل المبسوط بالتدبير المحكم، هو الصواب الذي لا معدل عنه، وهو غاية الجود الذي ليس وراءه غاية فالخائف من الموت هو الخائف من عدل الله وحكمته، بل هو الخائف من جوده وعطائه.[٢]

ويقول أبو سليمان الداراني (ت٢٥١ هـ)

«علموا النفوس الرضا بمجاري المقدور، فنعم الوسيلة إلى درجات المعرفة[٣] ويقول رويم بن أحمد البغدادي: المحبة هي الموافقة في جميع الأحوال وأنشد:

ولو قلت لي: مت، مت سمعاً وطاعة وقلت لداعي الموت: أهلاً ومرحباً[٤]

ويزيد الإمام الغزالي(ت ٥٠٥هـ) هذا المعنى إيضاحا إذ يقول:

«ينبغي أن تحب من لا يفارقك، وهو الله تعالى، ولا تحب ما يفارقك، وهو الدنيا، فإنك إذا أحببت الدنيا، كرهت لقاء الله تعالى، فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما تحبه، وكل من فارق محبوباً، فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه»[٥].

ولكن كيف تحب من لا يفارقك؟ بالمجاهدة في الله، والهجرة إليه، وهي تتأتى لمن يتجافى عن دار الغرور وينيب إلى دار الخلود، ويردد خاشعاً مع موسى الكليم:﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾[٦] وأني مهاجر إلى ربي «فالهجرة هنا روحية وجسمية، وقوف في محراب الله يقارب درجة الفناء، وكل عمل تتوخى فيه وجه الله هو عبادة محضة.

(١) عثمان أمين : المصدر السابق ٢٠٥
(٢) رسالة في دفع الغم من الموت ص ٤٢
(٣) عبد الرحمن السلمي : طبقات الصوفية ص ٢١
(٤) المصدر السابق ص ٤٣
(٥) الإحياء جـ ٤ / ٢٠٥
(٦) سورة طه الآية ٨٤

openkamal.com

ثم لنقف مع النفرى (ت ٣٥٤هـ) تأكيداً لهذه اللمحة نتأمل مخاطباته للروح الأعظم، وهو يقف في مقام الموت:

أوقفني في الموت فرأيت الأعمال كلها سيئات؛ ورأيت الخوف يتحكم على الرجاء ورأيت الغنى قد صار نارا ولحق بالنار، ورأيت الفقر خصماً يحتج، ورأيت كل شئ، ورأيت الملك غروراً، ورأيت الملك خداعاً وناديت يا علم، فلم يجبني. وناديت يا معرفة، فلم تجبني ورأيت كل شيء قد أسلمني،ورأيت كل خليقة قد هرب مني، وبقيت وحدي، وجاءني العمل فرأيت فيه الوهم الخفي، فما نفعني إلا رحمة ربي، وقال لي: أين علمك فرأيت النار. وقال لي: أين عملك، فرأيت النار.

وقال لي: أين معرفتك، فرأيت النار. وكشف لي عن معارفه الفردانيه فخمدت النار[١].

بيد أن هنا نقطتين يجب أن نناقشهما

النقطة الأولى:

قول الأديب وليام هازليت – وهو بصدد التهوين من الموت: لعل العلاج الأمثل للخوف من الموت، أن نذكر أن الحياة لها بداية كما لها نهاية وأنه كان بالأمس زمن لم نكن فيه، فلماذا يشغلنا إذن إن يجيء غداً زمن لا نكون فيه.

فالمغالطة في هذا الكلام واضحة كما يلاحظ العقاد (ت١٩٦٣م) إذ يقول: هذا كلام بليغ في الأسلوب الخطابي الذي يقوم على التزويق، وعلى القياس مع الفارق البعيد أو القريب.فإن الفرق ظاهر بين ماض لم أفقده، لأنني لم أكن موجودا فيه، وبين مستقبل سأفقده لأنني وجدت في الحاضر، ثم أنقطع بي الوجود قبل الوصول إليه.[٢]

والذي يبدو لي أن الأستاذ العقاد وفق في الشق الأول، ولكن لم يوفق في الشق الثاني: فالمستقبل شيء لم أحصل عليه، فكيف أفقد شيئا ليس في حوزتي لا يمكن أن يستوي في

(١) المخاطبات ص٣٥
(٢) العقاد :بين الكتب والناس ٤٤٨

نظر الوجود أن تكون قد عشت ووجدت بالفعل وألا تكون قد وجدت أو عشت أصلا في زمن لم يجئ بعد.

إن الشيء الذي يمكن أن يقال - بشيء من التجاوز – أن ما سوف أفقده بالموت، هو نفسي التي بين جنبي، ولكن هذه النفس- وإن كانت بين جنبي فإنها ليست ملكا لي، إنما هي ملك واهب الحياة ومصرف الوجود سبحانه، وهي ليست عندي إلا وديعة وأمانة.

فإذا وطنت نفسي على أنها كذلك هان على الموت – لأن الوادئع مستردة – وتقبلته بقلب راض وعقل مطمئن.

النقطة الثانية:

كلمة لأبيقور (Epicurus(ت٢٧٠ ق.م)) الفيلسوف يهون بها من شأن الموت إذ يقول إن الخوف من الموت من فعل المخيلة تتخيل الجسم الميت ذا حساسية فيأخذنا الرعب من ظلام القبر وتعفن الجسم. أما الحكيم فيعلم أن الموت فناء تام، ويعلم أنه حين نوجد فليس يوجد الموت، وحين يوجد الموت ننعدم لذلك يبطل خوفه منه. (١)

وهذا كلام سقيم لا يتفق بحال من الأحوال مع التوجه الديني السليم؟

لكن عذر أبيقور أنه عاش في عصر حرم من نعمة النبوة وأنوارها، لأني وأنا موجود فالموت ملازم لوجودي في كل آن أرتب حياتى في كل خطوة من خطواتي وفي كل همسه من همساتي، حتى تتسق مع الواقع الديني، ولولا ذلك لضاعت حيلتي وخسرت كل شئ.

وإذا وجد الموت، فإنني أشعر به شعورا مضاعفا –لا يستطيع أن يجحد ثقل وطأته أحد كان- حيث أتحرر من أثقال المادة، وينكشف عنى الغطاء فيصبح البصر حديدا.

أضف إلي ذلك، عندما يواجه الإنسان الموت تبدأ مرحلة المساءلة والمسئولية، لمواجهة الحساب والعقاب، أي أن وجودي المادي والمعنوي يتأكد ويتثبت مع وجود الموت.

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٢١ وأيضا الدكتور عبد الرحمن بدوي خريف الفكر اليوناني ص ٦٨.

يقول جبران خليل جبران (ت١٩٣١م) «إن النفس التي ترى ظل الله مرة لا تخشى بعد ذلك أشباح الأبالسة والعين التي تكتحل بلمحة واحدة من الملأ لا تغمضها أوجاع العالم»[١].

٦- البعث والخلود:

لا أذكر ذكرت سلاحاً أعظم من هذا السلاح « الاعتقاد في البعث والخلود » لكي يواجه به الإنسان الموت بشجاعة نادرة.

أليس الموت حينئذ مجرد ضجعة في أحضان الملكوت، ثم يقوم لرب العالمين وهو الأهم والأعظم.

ليس الموت إذن ذلك الشيء الرهيب الذي يقدنا مجانا وبلا ثمن وليمة شهية للحشرات وخشاش الأرض ثم لاشيء بعد.

الموت بين يدي البعث مرحلة انتقالية تقود البشر إلي المحط الأخير الذي يختلف في خصائصه وطبيعته عن المحط الأول.

هو حدث عابر، من حوادث الحياة المتكررة،كإغفاءة عامل مكدود بعد يوم عمل طويل وعناء متواصل، بعدها يفيق ليتقاضى أجره، ولنتذكر في تقريب هذا المعنى للأذهان،أولئك الفتية الذين آمنوا بربهم، ولبثوا في الكهف زهاء تسع وثلاثمائة من السنين في سبات متصل، ذلك أنهم عند ما بعثهم الله من مرقدهم، ظنوا انهم لبثوا يوما أو بعض يوم! كأن الزمن للنائم والميت، له مقاييسه الخاصة المغايرة لمقاييس زماننا الآلي.

والبعث بعد الموت، كما هو مقرر في الأديان السماوية، قاعدة أساسية في الديانة الإسلامية لكل من الروح والبدن، ليكون الجزاء وفاقاً.

والقرآن حافل بالدلائل البينات على بعث الأجسام، بصور مؤثرة من مشاهد هذا البعث وحسبنا أن نسوق هنا لكل متشكك أو مكابر، هذا القياس القرآني البعيد الأثر، البالغ الإقناع، قياس الغائب على المشاهد ﴿**وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ**

(١) الأجنحة المتكسرة ص ٢٣٢ (الأعمال الكاملة)

﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

هذا البعث «هو الطور الأخير من أطوار تلك النشأة، وبعده تبدأ الحياة الكاملة المبرأة من النقائص الأرضية، ومن ضرورات اللحم والدم، ومن الخوف والقلق، ومن التحول والتطور لأنها نهاية الكمال المقدر لهذا الإنسان»[٢].

أليس هذا إذن هو للصالحين أعظم ما تطمح إليه النفوس، وتتشوق إليه القلوب، وتتعلق به الآمال؟

هذا هو سقراط الحكيم (ت٣٩٩ ق.م) يقرر بواسطة الفطرة الإيمانية الكامنة في أعماق الإنسان، وبصدق حدسه البشري، وسعة أفقه، وتأملاته العميقة حقيقة الخلود وأن الفناء لا يصيب منا إلا أجسامنا الهشة، أما الروح فباقيه في عالم الملكوت الأعلى مبرأة من كل شهوات الجسد، وشوائب المادة.

لنصغ إليه في وصيته الأخيرة وقد التف حوله تلاميذه يستمعون آخر شذرات الذهب قبل أن يتناول كأس الموت يقول موجها كلامه لأقريطون:

إني لا أحب لك أن تتحسر على جدي العاثر، بأن ترتاع لدفني، فتأخذك الحيرة على هذا النحو نكفن سقراط، أو هكذا نشيعه إلى القبر أو نواريه التراب أي عزيزي أقريطون، قل إنك لا تقبر مني إلا الجثمانية، فأقبره على النحو الذي جرى به العرف، وكما تفضل أن يكون[٣].

ثم يؤكد لهم حقيقة الخلود قائلا: لو كان الموت خاتمة كل شيء لكانت صفقة الأشرار في الموت رابحة، لأنهم سيغتبطون بخلاصهم، لا من أجسادهم فحسب، بل من شرهم ومن أرواحهم معاً.

---

(١) سورة الحج الآية ٥، ٦

(٢) ظلال القرآن جـ/ ١٨ (سورة المؤمنون).

(٣) محاورة فيدون ص ٢٠٥ .

أما وقد اتضح في جلاء أن الروح خالدة، فليس من الشر نجاة أو خلاص إلا بالحصول على الفضيلة السامية والحكمة العليا [١]

ثم يقول حكمته المدوية: « إذا تحطمت القيثارة فهذا لا يعني فناء النغم[٢] ».

وإنها لكلمات ذهبية حقا، تلك التي فاه بها يوحنا فم الذهب إذ يقول: « إذا لم يكن لك قيامة، فيكون الإنسان أحقر من الأشياء التي خلقت لأجله لأن السماء والأرض أبقى منه وأثبت، وبعض الحيوانات الخسيسة أطول منه عمراً »[٣]

وفي هذا المعنى يقول باحث معاصر: ما أتفه الحياة إن لم يكن خلود! وما أضيق الأمل إن لم يكن غير هذه الحياة، وما أضيع العدالة إن فقدت الدنيا ولم تكن آخرة » [٤]

وصدق القديس أوغسطين (ت٤٣٠ م) إذ يتحدث بلهجة المؤمن الواثق عن رحلة الموت التي سيقت إليها أمه: « احتفلنا بالمأتم بلا صراخ ولا نواح، لأن أمي ليست ذاهبة للفناء التام، وموتها لا يدعو للتحسر، فهذا الموت لا يعد موتاً كاملاً ولكنه طريق موصل للحياة الخالدة [٥] »؟

وفي هذا المعنى يقول أبو حيان التوحيدي: « إننا حينما نغادر هذه الحياة الفانية، ثم نبعث من جديد، ذلك سوف يكون على نحو أفضل كثيراً فمثلاً العين الباصرة، تستطيع أن تبصر بها العالم على نحو أفضل من ذاك الأبصار وهي آمنة من الأمراض المكروهة وهذا ما يرغبه أي إنسان وافر أو ناقص » [٦]

ويربت ابن عربي (ت٦٣٨ هـ) صاحب وحدة الوجود – بيده الحانية على كتف الإنسان، يطمئنه كيلا يجزع من الموت ولا يخاف، لأنه: «لن يصيب منا إلا صورنا

(١) المصدر السابق ص ١٩٥.
(٢) المصدر السابق ١٦٠.
(٣) ميخائيل مينا : علم اللاهوت ص ٢٢٤
(٤) أحمد أمين : فيض الخاطر جـ٤ / ١٦٦
(٥) الإعترافات ص ١٨٨
(٦) الإمتاع والمأنسة جـ٣ / ١٢١

المحسوسة:أي أجسامنا فإن فنيت هذه الأجسام، بقينا بحقائقنا في صورنا المعقولة والمثالية»[١].

خلاصة القول: إن الإنسان باعتقاده الراسخ في البعث، كما صورته الآن النصوص الدينية وشد أزرها صريح العقل، ينتصر فعلا على الموت: بمعنى أنه لن يرى الموت حينئذ إلا فترة مؤقتة من النوم العميق في أحضان الملكوت الأعلى، لتعقبها.الصحوة الشاملة لبداية حياة جديدة حافلة للصالحين بما لذ وطاب، خالدة إلى غير نهاية.

والإنسان بفهمه العميق لأبعاد الحياة والموت، يستطيع أن يعلن بوضوح مع سقراط:أنه يرغب في الموت لأنه راسخ العقيدة في خلود الروح.

وأنه ذاهب إلى إله ذي خير وحكمة.

وإلى الراحلين من الرجال، وهم يفضلون هؤلاء الذين أُخلفهم ورائي وأنه يرجو أن يصيب في العالم الأخر بعد الموت أعظم الخير.[٢]

***

(١) أبو العلا عفيفي : التعليقات على فصوص الحكم ص ٢٧٠
(٢) محاورة فيدون ص ١٢٢

obeikandl.com

خاتمة

من هذه الدراسة التي دارت حول الإنسان، ومصيره، ونهايته التي لا بد أن ينتهي إليها، نصل إلى مجموعة نتائج تفرض نفسها بطريقة تلقائية وأهم هذه النتائج:

* أكرم مخلوق على هذه الأرض هو الإنسان، ذو الأبعاد المتعددة المفكر والمبدع والمائت. الذي يعيش الماضي والحاضر والمستقبل، يحكم بالماضي ويعيش الحاضر ويأمل في المستقبل، وفي قلبه وعقله من شتى الصور ما يبهر ويحير ويضحك ويبكي.

ومن خصائص هذا المخلوق العجيب أطوار نشأته التي تبدأ من رحم أمه وتنتهي بالخلود في جوار ربه

بديهي أن ليس الإنسان هو الموجود الوحيد على ظهر البسيطة، بل هو أقل موجوداتها من حيوان ونبات وجماد. إلا أنه بعقله يمثل القمة وهذه الموجودات من أجله خلقت وسخرت له، فإذا قد كتب عليه الموت فقد كتب عليها هي أيضا الفناء والعدم.

* الله سبحانه وتعالى هو الحي، العالم، القادر، المريد، وهو السميع البصير المتكلم، وهو الأول والآخر، والواحد الذي لا يتعدد، والأحد الذي لا يتجزأ، له الأسماء الحسنى، والكمال المطلق.

وإذا كان لنا نحن شيء من ذلك، فإنما هي أمور نسبية متناهية. وكذلك هي حياتنا وهذه الحياة التي نعيشها، وهو سبحانه الذي قرر طبيعتها وأودعها خصائصها وأعطى كل شيء خلقه، وما علمنا عن خلقه وأسراره إلا القليل القليل.

obeikandl.com

اصغ معي إلى هذا المتفلسف الأديب «فإذا أمعنت النظر وتيقنت أن الله عز وجل في خلقه أحكامه لا يعاز عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها ولا ينال غيبها، ولا يعرف قابها (القدر) ولا يقرع بابها. وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدانينا وأقاصينا، له الخلق والأمر وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر [١]

«اللهم لا شكاية لقضائك، ولا استبطاء لجزائك، ولا كفران لنعمتك ولا مناصبة لقدرتك»[٢].

ثم استقم على الطريقة، وردد بصوت خاشع، متدبر، واع ﴿**وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى**﴾.

وإذا حالت دونك الحوائل أو وهن منك العزم، وقصرت الحيلة، فعلى الإنسان أن يتصل بالقوة الكبرى، ويستمد منها العون حين يتجاوز الجهد قواه المحدودة، حينما تواجهه قوى الشر الباطلة والظاهرة، حينما يثقل عليه جهد الاستقامة على الطريق بين دفع الشهوات وإغراء المطامح، وحينما تثقل عليه مجاهدة الطغيان والفساد»[٣].

* إذا حاول الإنسان أن يتفهم الأسرار الإلهية داخل الكون، فلن يستطيع أن يسبر أغوارها، لكنه بلا شك يستطيع أن يقف على الحكمة وراء الكثير من الأفعال والوقائع، ويتفهم الكثير من المعاني المعقولة لما يبدو لنا في الحياة كأنه محض شرور.

وقديماً وحديثاً كم تساءل الناس عن السر الكامن وراء خلق الله الكثير من الحيوانات المفترسة، والهوام والحشرات الضارة، وقد تأمل في ذلك القاضي عبد الجبار – قاضي القضاء وأحد شيوخ المعتزلة المتوفي عام ٤١٥هـ وسجل نتائج تأملاته كما يلي:

---

(١) ياقوت الحموي : معجم الأدباء جـ١٦ / ٢٥ والنص رسالة من أبي حيان التوحيدي إلى القاضي أبي سهل على بن محمد.

(٢) رسائل الخوارزمي ص ١٠.

(٣) في ظلال القرآن جـ٢ / ١٩٧ – ١٩٨ (البقرة)

«أن لها منافع كثيرة دنيوية ودينية: فنحن نأخذ من الحيات والعقارب ترياقا لدفع السموم، ثم إننا عندما نرى صور الحيوانات الكريهة المؤذية نكون أقرب إلى الاحتراز من عذاب الله الذي هو أشد وأضر، ولعل الله يخوفنا بهذه الحيوانات، لنعلم أن عنده على الأقل من جنس ما نشاهده الآن، حتى نزد جر ونرتدع»[١].

والمقصود أن على الإنسان أن يؤمن إيمانا لا لبس فيه، أنه ما من شيء يقع على هذه الأرض إلا وهو مقدر في الأزل، لا ارتجالا ولا عبثا، بل لحكمة بالغة علمنا أم جهلنا حتى المحن والمصائب، فرُبَّ نعمة في طي نقمة.

ومحنة الموت ليست استثناء وهي محنة الإنسان الكبرى، ولكن بعدها نعمة، الخلود في الحياة الأبدية، ورؤية الله في الآخرة (على اختلاف العلماء في طبيعة الرؤية).

* علينا أن نتقبل الموت بنفس راضية، وتسليم مطلق،على أنه قانون أزلي للحياة والأحياء وأنه لا يعدو أن يكون غفوة في عالم الغيب،أو استجماما موقوتا، نستأنف بعده رحلة الخلد مع الأبرار والأطهار– إن كنا صالحين – أي أن الحياة لا تنقطع، ولكنها تمضى موصوله الحلقات على الاختلاف في الطبائع والآثار.

* الحياة في الجملة سلسلة من الآلام، وسجل حافل بالمشكلات، ونحن نصبر ونصابر فلماذا لا نتقبل الموت ضمن هذه المنغصات العديدة إن في أنفسنا،وإن في أحبابنا وأهلينا. هذا إن أخذناه على أنه إحدى المنغصات حقا.

ولنذكر كلمة هذا المتأمل: «لا تحزن لأن الحزن على الأموات غلطة من أغلاط الأجيال الغابرة، بل أتل على مسمعها أحاديث الفرح وأنشد أغاني الحياة فتسلوا وتتناسى»[٢].

* علينا أن ندعو دائما لأحبابنا الذين مضوا في الطريق المرسوم، ولقوا ربا كريما. ونبتهل إلى الله أن يعفو عنهم، وأن يتغمدهم برحمته، ويشملهم بعفوه ويفسح لهم

(١) رح الأصول الخمسة ٥٠٦ – ٥٠٧.
(٢) جبران خليل جبران :الأجنحة المتكسرة ص ٢١٨ (ضمن الأعمال الكاملة).

obeikandl.com

في قبورهم، ويؤنسهم في وحدتهم، ولا أقل من أن نقول للواحد منهم:

«نسأل الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك ودليل الخير دليلك، وأن يوسع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حشرك». (١)

إنه نعم المولي ونعم المجيب، وسلام على عباده الصالحين والحمد الله رب العالمين.

محمد عبد الرحيم الزيني

مدينة صور

سلطنة عمان ١٩ مايو ١٩٨٤م

***

(١) المبرد: الكامل جـ٤ / ٨٨.

obeikandl.com